القُدرةُ التي لا تُهزَم

بينما كانت الدِّماء تُسالُ ظلمًا وعدوانا، والشهداء يتساقطونَ واحدًا تلوَ آخر في سبيل الدِّينِ والعِزَّةِ على يد جيوش جرّارَة جائت مِن وراء الحدود وأخَرى استجمعَت قواها في الدّاخل لتنالَ مِن شعبٍ أعزَلٍ حُرٍّ مظلوم .... كانَت هذه الكلمة.

مِن منبر كانَ في مرمَى فوهات الدبّابات المنتشرة على كل مساحة الأرض، والبنادق التي باتت تُصوّب كلّ ما يتّصل بالسَّماء.

في أدقّ المنعطفات التي تُخيّر فيها بين «الرّكوع أو الرّكوع» .. كان الموقفُ الذي أعادَ الحياةَ لكلّ شيء، كان «**لن نركع إلّا لله**»، تلك الخطبة التاريخية في الثامن عشر من مارس لسماحة آية الله الشيخ عيسى أحمد قاسم، المحاصَر الشّامخ اليوم الذي لا زال ينفخ بروحهِ المقاومة وفِكرهِ المقاوم في كلّ روحٍ وعقل.

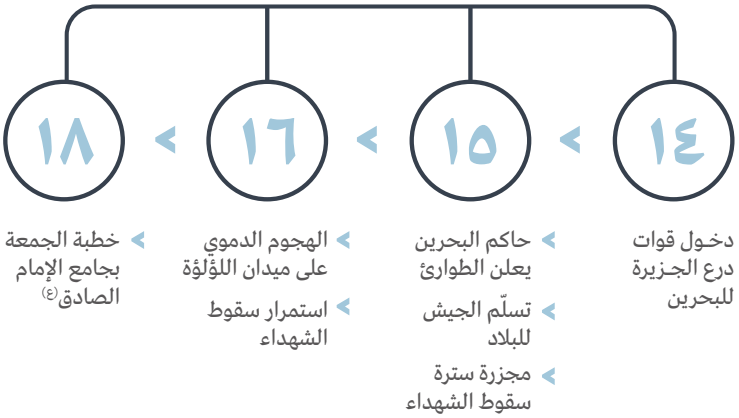

١ سيبقى هذا الشّعب هو الصابر القويّ الأبيّ

إن الأيّام الأخيرة في البحرين قد أثقلها عنف السلطة، واكتئبت بمحنة الشعب، ولكن زانها صبره وتحمُّله وغيرته وإباؤه كما تعلمون. وسيبقى هذا الشّعب هو الصابر القويّ الأبيّ المصرّ على المطالبة بالحقوق[١].

هذه دماؤنا، هذه رقابنا، هذه رؤوسنا فداءٌ لديننا وعزّتنا [٢].

٢ الضّربات إنّما تُهشِّم الزجاج أمّا الحديد فتصقُله

إنَّ ابتلاء العباد في الأرض سنّةٌ لله سبحانه وهي من مقتضى حكمته وعلمه بما يُصلحهم أو يفسدهم. ومن ذلك الابتلاء بالغِنى والفقر، والأمن والخوف، والشّدّة والرّخاءِ، والبأسَاء والضرّاء، وهو يعلم أنّ الضّربات إنّما تُهشِّم الزجاج، أمّا الحديد فتصقُله وتزيده صلابة، وبذلك تكون الابتلاءات في خاتمتها رحمة بالمؤمنين،

(١) هتاف سماحة الشيخ وجموع المصلين بـ(لن نركع إلا لله).
(٢) هتاف جموع المصلين بـ(هيهات منّا الذلّة).

وشقاءً على غيرهم، لأنَّ إيمان المؤمن يرتفع به عن مستوى الهشاشة، ويقيه من الذّوبان، وقلبُه متّصلٌ بمعدن العزّة والقوّة التي لو كان للقدَم الحقّ بداية لكانت قبلهَ، وقبل أيّ بداية، ولو كان لَلأبد نهاية لكانت بعده، وبعد كلّ نهاية.

فَمَن أراد قوّة النفس، وقوة الصّبر والتحمّل، والابتسامة في أشدّ الشّدائد، والاطمئنان في أحلك الظروف فليطلُبْ كلّ ذلك من قوّة الإيمان، ونسأل الله الكريم أن يهب لنا ذلك.

٣ القُدرة التي لا تَهِن

المؤمنُ كالجبل الأشَمّ يبقى على طريق الله واثقاً، راضياً، ثابتاً، مؤمناً بقيمته، شاعراً بالرِّبح في كلّ الظّروف، لا تفعل فيه العواصف والكوارث والهزّات العنيفة إلاّ مزيداً من الثّبات والثّقة والتجذُّر، لأنّه لا يستمدّ معنويّاته من الظّروف المقيمة أو العابرة، وإنّما من إيمانه بقدرة الله، وثقته بها، ولجئِه إليها، وهي القدرة التي لا تَهِن، ولا تتخلّى عن متعلِّق بها، ولا تغيب. «الَّذِينَ آمَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللّهِ أَلاَ بِذِكْرِ اللّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» [1].

(١) ١٥ ٢٨/ الرعد.

صحيح أنَّ لأهل الأرض قوّة حديد ونار ولكنها محكومة لقدرة الله وقَدَره، ثم لا سلطان لها إلا على الأجسامِ، والإنسان روح وعقل وقلب وإرادة قبل أن يكون جسماً، والقابل للتهشُّم إنّما هو الجسم، أما المؤمن في داخله الإيماني فغير قابل للتهشّم والانصهار.

إنَّ العنف الذي مارسته السُّلطة في هذه الأيام قد أدَّى بصورة بيّنة إلى شَرْخٍ واسع خطير غير مسبوق بين جهتي الحكومة والشَّعب، ومع استمرار نهج العُنف الذي وقعٍ عليه اختيار السُّلطة لا يستطيع أحد التكهُّنَ إلى أيّ حدٍّ ستصل من خلاله الأمور.

٤ الشّعب باقٍ على كلمته

المطالبة بالحقوق والإصلاح السياسي قائمة لن تسقط في ظلِّ أي ظرف من الظروف لأن منشأها الضّرورة الملحّة، والضّغط الشديد. وها هو الشّعب باقٍ على كلمته هيهات منّا الذّلة [1].

(١) هتاف جموع المصلين بـ(هيهات منّا الذلّة).

والحكومة التي تحكم هذا الشّعب وهو يصرُّ على هذه الكلمة وما وراءها من شعور أكيد شديد بين خيارين: بين أن تسحقه سحقاً بدبّاباتها، وتقصفه بطائراتها في تصفية جسدية عامّة، وبين أن تعترف له بالعزّة [1].

٥ لا للإصلاح الشكليّ

والإصلاحُ لا يصحُّ أن يكون شكليّاً ولا باهتاً ولا سطحيّاً لأنّ إصلاحاً بهذا اللون وبهذا المستوى غير قادر على حلّ المشكل، وأنْ يُوقِفَ تداعي الأمور، ولا يوجد على هذه الأرض من يسمع لهذا الإصلاح.

٦ هيَ المحاسَبة على ذلك

لقد أصبح الوضع الأمني في البحرين محكوماً بكامله لقبضة جهة رسمية معيَّنة محدَّدة. وعليه فإنّ أيّ اختراق غامض لأمن أحد من أبناء الشعب، وتعدٍّ خفيٍّ على نفس أو مال أو عرض لمواطن أو مقيم ليس إلاّ من مسؤولية هذه الجهة، وهي المحاسبة على ذلك.

(١) هتاف جموع المصلين بـ(لن نركع إلا لله).

أقـول هـذا في الوقـت الـذي توجـد فيـه مـؤشّرات مكشـوفة جدّيـة، مصحوبـة بحمـلات إعلاميّـة تحريضيّـة، ونَقْـلٌ خـبريٌّ فيـه قـوَّة، ورسـائل نصّيـة تتهـدّد أكـثر مـن واحـد بالتصفيـة الجسـدية. فليـس الـكلام هنـا مـن فَـراغ. فلتتحمّـل الجهـة التـي أُوكل إليهـا أمـر الأمـن كلّ المسـؤولية.

٧ الموقف الأمريكي البريطاني: حَمَلة راية الديموقراطية!

وشـعبنا ليـس في مواجهـةٍ مـع أيّ طـرف خارجـيّ، ولا يريـد المواجهـة مـع أحـد، ولكنّـه يُسـجِّل ملاحظـة عـلى الموقـف الأمريـكي والبريطـاني المؤثِّـر بدرجـة كبـيرة لـو أراد عـلى حالـة العُنـف الرسـمي المرتكَـب ضـدّ الشـعب، والتصلُّـب في عـدم الاسـتجابة للحقـوق لعـدم انسـجام هـذا الموقـف مـع حمـل رايـة الديموقراطيـة، والحريَّـة، والانتصـار لحقـوق الإنسـان، وإرادة التّطويـر الإيجـابيّ عنـد الشّـعوب.

وبالنسـبة لخـروج بعـض المقيمـين مـن هـذا البلـد فـإنّ يقينـي أنّ هـذا الشـعب لا ينبغـي أن يخـاف منـه أحـد عـلى نفـس أو عـرض أو مـال؛ فهـو شـعب قـد ملـك رشـده.

٨ لو كان توجُّهها لإنقاذ غزّة !

كان لنا أن نفخرَ كثيراً، ويفخر كلُّ العرب، وكلُّ المسلمين لو كان توجُّه القوَّة الخليجية المشتركة لإنقاذ غزّة من حرب الإبادة التي شنّتها عليها إسرائيل قبل، أو لحمايتها اليومَ من التهديد بالعدوان بدل توجُّهها لضرب شعب خليجي أعزل ذنبه أنّه طالب بالإصلاح، وبدل تصويب أسلحتها لتجمّعات من شباب بصدور عارية، ونساءٍ، وشيوخ، وأطفال في حين أنّ جيش البحرين المدجَّج بالسّلاح كاف وحده لسحق الشّعب وإحداث المجازر في أبنائه، وإسالة أنهارٍ من دماء الأبرياء.

٩ لا يُسجَّل في تاريخ البطولات

لهو أمرٌ يا رجال، يا عرب، يا مسلمون لا يمُكن أن يسجَّل في تاريخ البطولات، والمجد، والفخر، والانتصار، والكرامة.
النصر هنا هزيمة، والزّحف خطأ وخطيئة بيقين.

١٠ عُنفها يجرّها إلى النّفق

ماذا أعطى عنف السلطة، وماذا ترتّب عليه؟ جرح، قتل، زلزال أمنيٌّ، فزع، رعب لأطفال ونساء، محاصرة للمستشفيات، جرحى يُمنعون العلاج، أطباء وممرضات يُسجنون في المستشفى، اعتقالات. كلُّ ذلك ليفاقم من الأزمة، ويطيل من أمدها، ويدخلها في فصول مجهولة منذِرة عبر نَفَقٍ مظلم كئيب لا يُدرى ماذا يفعل بالجميع، وليس بطرف واحد.

١١ فلتيأس كلّ سياسات التنكيل

إن كان هذا الخيار هو العقل والحكمة فعلى العقل والحكمة السّلام، والجهلُ خير من هذا العقل والحكمة ألف مرّة، وألف مرّة، وألف مرّة. ألا فلتيأس كلّ سياسات القمع والعنف والتنكيل من إخماد صوت الشعوب، ومصادرة حقوقها.

خطبة الجمعة (٤٤٣)
١٢ ربيع الثاني ١٤٣٢هـ
١٨ مارس ٢٠١١م